طبيعة التفكير اللغوي العربي
إلى نهاية عصر الإسلام

د/ عبد الحميد الأقطش

جامعة اليرموك ـ الأردن

ملخص :

يهدف هذا البحث أن يحقق في ثناياه إجابة موضوعية عن طليعة التفكير اللغوي عند العرب، قبل مرحلة الاحتراف، وظهور العلماء المختصين. وتحديداً ضمن حقبة صدر الإسلام، فما قبلها ببضعة عقود في الجاهلية.

وبالموجز؛ فقد كان ثمة بتلك الحقبة نتاج رفيع من الشعر والنثر الأدبيين، ما زال لليوم يُعَدُّ مرجعية عُليا للفصاحة والصحة معاً؛ لكن ليس ثمة حضور لتفكير لغوي، قد صاحب ذاك النتاج، سواء مُنظماً ومُستَكشِفاً لقواعده، أم مُمَحِّصاً ومُقَوّماً لكفايته، اللهم إلاّ شذرات من البدايات الفردية البسيطة المتناثرة، والتي تَمْثل بالحقبة الجاهلية في حكومة بعض الشعراء، أحدهم على شعر غيره بأسواق التجارة آنذاك، وتَمْثل بحقبة صدر الإسلام في مأثورات منسوبة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين، حول العربية عامة، وعربية القرآن المجيد خاصة. وكل الشذرات هنا محصورة في نطاق التصحيح اللغوي، بالتنبيه على الغلط حسب.

على أن الإمساك بالشذرات هذه، ولو غامضة أوضئيلة، ذو قيمة معرفية مهمة، من حيث إنها تُعَدُّ الأساس في الصورة الجمعية للاحتراف اللغوي لاحقاً، فضلاً عن كونها هي التي خَطَّتْ ، بشكل جَنينيّ وشبه جَبْريّ، معيارية تربط بنية العربية الفصحى في كل أوان، بالنسيج البنيوي في القرآن والأدب القديم ليس إلاهما.

1- فرش المبحث :

في البدء... تُغَطّي عربية صدر الإسلام فما قبله ببضعة عقود، المساحة الوضيئة جداً، من المشهد العام للظاهرة اللغوية عند العرب. وتتفق شهادات العرب على أن أسلافهم، بتلك الحقبة، قد استوت لهم كل خيوط الفصاحة والبلاغة معاً.

وفي الوقت نفسه فالشهادات متفقة أيضاً على أنها حقبة من عمر العربية، كان النقص فيها شديداً للغاية، على مستوى صناعة المعارف بعامة، نقلية كانت أم عقلية.

وجُلُّ مثاقفات العرب كانت تجري فيهم عصرئذٍ من طريق السماع والرواية الشفوية، لا القراءة والكتابة، وذلك أن الكتابة إنما فَشَتْ وأخذت صورة شعبية بينهم، بمجيء حكم العباسيين، وتأسيس مصنع للورق ببغداد؛ فأما قبل ذلك فالكتابة كانت مُرْتَهَنة بماديات غالية الثمن ونادرة مثل : الجلود، والبرديات والعُسُب، ومثلها مذخور لتدوين عظائم الموضوعات لا نوافلها، كنصوص الشريعة، ومسائل الإدارة، والدواوين، ثم إن أرباب المعرفة أنفسهم، لم يكونوا كذلك كثيرين، ولا طبقة شعبية، بل رفيعة من ذوي التّمَدُّن، أو أهل البيوتات المُتَمَوّلة الغَنيّة؛ والجهد من هؤلاء كان أضيق من أن يستوعب أعباء المتطلبات الرسمية الكثيرة، بله أن يدون مذكرات في موضوعات معرفية ذاتية أو عامة.

ويحاول هذا البحث في خضم الصورة الآنفة عن العرب وعربيتهم، أن يتلمس طريقه تجاه مسألة محدودة، عن منهجية العرب أولئك، في استيعاب ما صدر عنهم من عربية فصيحة، ومن ثم في إنتاج معرفة فكرية نظرية حولها، تحت العنوان الموسوم بـ "**طليعة التفكير اللغوي العربي إلى نهاية صدر الإسلام**".

وبسبيل إلى إجابة كَفيّة و مثبوتة في هذا المقام، فقد عَوّل البحث أن تكون قاعدة بياناته الأساسية من الشواهد المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو خلفائه الراشدين، أو أعيان الشعر فيما يتعلق بالحقبة الجاهلية. وقد كان من مقتضاه أن تدرجت فقراته باستهلالة في فرش المبحث، عن مناخ العربية في الجاهلية وصدر الإسلام، وعن علاقة ما بين عربية الأدب الجاهلي والقرآن المجيد، ثم فقرة مُحَصّلة عن التفكير اللغوي في الجاهلية، ومن ثم فقرة مسهبة عنه في صدر الإسلام.

وجراء المباحثة في ذلك كله، وصل البحث إلى صفوة ما انتهى إليه، في الملخص المرقوم بصدر البحث بأعلاه.

1:1 مناخ العربية في الجاهلية وصدر الإسلام :

فيما عدا ما ينسجه النَّسَّابون من تفصيلات عن مواضي حيوات العرب قبل الإسلام، وارتباط لسانهم الأول بنبي الله إسماعيل، عليه السلام، أو غيره من البشر[1]؛ فإن مبتدأ العلم بأخبارهم الجدّية، لا يعدو الزمنية الممتدة، لمائة الأعوام المباشرة لفجر الإسلام بمكة. وهي الحقبة الموسومة عادة بـــ(الجاهلية الثانية)، وأحياناً بـــ(العربية الباقية)، ومتواضع عليها بأنها أساس فترة (الاحتجاج اللغوي).[2]

وذاكرة العرب قلما احتفظت بإخباريات موثوقة عن مواضيهم سابقة على هذه الحقبة. ومستصفى الإخباريات هنا، يكاد ينطق بأن العرب عهدئذٍ كانوا على أعتاب حركة متحركة، لكن غير منتظمة، ولا متصلة الوقوع، نحو إحياء مجتمع الدولة القومية العربية. وعلى قدر ضغط الظروف الموضوعية المختلفة، المحلية والخارجية، كانت تجري متسعة أو ضيقة مناخات الإحياء، وفي شتّى أوضاع العرب : السياسية، والاجتماعية، والدينية، واللغوية خصيصى.

ففي المناخ السياسي : لاح وعي قومي يدفع نحو مجتمع الدولة، وهجر نظام المشيخات القبائلية، تأثراً بأهل الجوار، ذوي العروش السياسية من : حبشان، ورومان، وفرس من نحو، واستجابة طبيعية، للتهذيب المدني، وانكماش حياة البداوة من نحو آخر؛ ولكن هذا الوعي السياسي لم يرق إلاّ درجة صُغْرى فوق درجة النظام القبائلي، بتأسيس بعض الإمارات مثل : كندة، والمناذرة، والغساسنة، وسلطنة مكة.

وفي المناخ الاجتماعي : لاح وعي مدني يدفع نحو التمازج بين قبائل العرب، وإحراز قدر من الأمان للأنفس والثروات بينهم، ولكن هذا الوعي لم يرق بدوره إلى درجة صهر القبائل العربية أفراداً في مجتمع واحد، وبقيت الصِّلات البينيّة فيهم، ضامرة النطاق باهتة، إلاّ من علاقات الأسواق، والأحلاف، والأنساب.

وفي المناخ الديني : لاح وعي روحي يدفع نحو الوحدانية، وهجر عبادة الوثن، ولكنه لم تجنح إليه سوى بضعة أفخاذ من قبائل العرب تَنَصّرتْ بأسافل الحجاز، أو أعالي نجد مثل : إياد، وتغلب، وكلب.

وأما في المناخ اللغوي : فقد تَبَلْوَر على الواقع وعي لغوي يدفع نحو التمَذهُب بسلوك لغوي مثالي مشترك وموحد، ليكون بمثابة لغة رسمية قومية للعرب، يَستَظِلُّ بها عند الحاجة إليها ذوو التّنْوير منهم؛ من أهل الرياسات، والجاه، والأدب، والرأي المسموع، فوق ما فيهم من سلوكهم اللغوي الفطري، و المتباين تبعاً للتَّبايُن بين جذورهم القبائلية المختلفة ؛ أي فوق مستوى اللهجات فيهم[3]؛ فأما طبقة الوالدان والأمهات،ومن هم في عداد الحَشْوة والعوام، فلا دَخَل لهم، وليس من وَكْدِهم أصلاً، أن ينشغلوا بغير ذواتهم الفردية، وحياتهم الفطرية،وعليه فالخطاب بـــ(**العرب**) في هذا البحث لا يُراد به أيّما عربي. وإنما مثقف خاص، يُفْزَع إليه في الرأي، وبلورة المقصود عند إنتاج المعرفة اللغوية أو تلقيها.

وقد كان النجاح في هذا المنحى اللغوي فائقاً، حيث تضافرت المناخات الآنفة، بعضها مع بعض، وجنباً إلى جنب، وطَحَتْ بالعرب نحو ذاك السلوك اللغوي المثالي، الذي نعرفه بآثاره، وتَسْتعصي علينا جدَّ الاستعصاء بداياته[4]، وهو الماثل في عربية الأدب الجاهلي، تلك التي انغمس العرب في أتونها،انغماس اليونان بالفلسفة، أو الفرس بالرياش والأثاث. وخزانة الأدب الجاهلي طافحة بنماذج الآداب الموافقة، خاصة أدب (المعلقات).

ومع الوقت الذي تَمَأْسَسَتْ فيه أول شبه سلطنة سياسية للعرب، بأرض العرب في (مكة)، بالقرن السادس الميلادي، كانت عربية الأدب الجاهلي بالغة مُبالَغة من حيث الاستقرار على أنموذج لغوي فنيّ، شبه ثابت ومُوَحَّد[5]؛ إنْ في صياغة المفردات وضبط نطقها، أو في نظم العبارات وتوجيه إعرابها، أو في بناء الأساليب وترتيب خطواتها، فالكل مرقوم على أحسن موازين النحو، وأحسن أفانين البلاغة، وفي دائرة

لغة بدوية لها نفس المفردات، ونفس الصور البيانية، وندر ما اشتملت على رواسب لهجية، ولا حتى على تجارب أدبية فَجَّةَ أو غَريرة، بل قد كانت عربية الأدب الجاهلي تُوشك من أعتاب مرحلة الشروع بتحريرها كتابة، بنحو ما يُروى عن كتابة (المعلقات)، و(حيفة المُتَلَمِّس)، و (صحيفة المقاطعة)[6].

* على أن مكانة العرب المستحكمة في الأُمِّيَّة، وفي البَداوة، "لم تُنْه إلينا مما قالت العرب إلاّ أقلّه، ولو جاء وافراً لجاء علم وشعر كثير". (الصاحبي، ابن فارس، ص18).

2:1- عربية الأدب الجاهلي والقرآن المجيد :

في عام الوفود فَرطَ العرب الجاهليون علاقتهم بالوثنية، وشرعوا يدخلون في شريعة الإسلام أفواجاً، فتماهت بينهم الحواجز القبائلية، وغدوا أمة عربية واحدة، تخضع مباشرة لإمرة دار النبوة، ومن ثم دار الخلافة بالمدينة المنورة.

ومع هذا المفصل السياسي تَغَيَّرَت قيم الحياة وموازينها عند العرب، وصارت غيرها بالأمس؛ محكومة، ومُقايسةَ وفق ما يَسْمح به الفقه الشرعي الجديد، وأصاب ذلك التغيير مناخات العرب كافة، ومنها المناخ اللغوي، الذي حظي بأعظم حركة إحياء، وربما على مستوى دولي حتى اليوم.

فقد قَضَتْ حكمة الله، جلّ في علاه، لشريعة الإسلام، أن يَتَنَزَّل وَحْيُها، أَيْ القرآن المجيد، بلغة عربية مُتضاهية في تَشكُّلها البنيوي، لا من حيث المحتوى والإعجاز، وإيّا التَّشكُّل البنيوي السائد في عربية الأدب الجاهلي، فثمة تَرْتَسِم صورة (شكلانية) واحدة بين المستويين، لا سيما في مسألة (الإعراب).

وكذلك استجدت في مسيرة العرب اللغوية حركة إحياء ثانية، تقوم على رعاية جَنْبَيْ العربية ذَيْنك، فلم يَتَلاغى القرآن المجيد مع الأدب الجاهلي، و لم يُنْتج قطعية معرفية معه، وعلى مُطاوَلَة الأدب الجاهلي في المُغازلة، وجَهالات الوثنية، فلم يُرْجَم

بالشغب، ولا اختبال الحِسِّ، وبقي يُنْظر إليه ببنيته الكليّة، على أنه أنموذج للصحة اللغوية، وللفصاحة أيضاً؛ ثم كان من دار الخلافة أنها أقرّتْ هذا العرف اللغوي المشترك ليكون لساناً جامعاً، ولغة رسمية مركزية للتواصل الثقافي الرسمي بين العرب أنفسهم من نحو، وبينهم و بين إخوانهم المسلمين أو مواليهم الذميين من نحو آخر. ومنذ هذه الحِقْبة الزمنية صارت تَتَجلّى إشارات عديدة في التمييز بين نوعين من مستويات الكلام وهما :

* مستوى الكلام الجمالي المستظرف فنيّاً، وهو الذي عليه عربية الأدب الجاهلي، والقرآن المجيد، وما يوافقهما، وأخذ يُعبر عنه بمصطلح (**العربية**) .

* ومستوى الكلام التواصلي غير الجمالي، ولا الفني؛ وهو الذي عليه عربية الحياة اليومية العادية، وأخذ يُعبر عنه بمصطلح (**اللغة**).

وأول الإشارات عن المستوى الأول يجدها المرء في القرآن نفسه؛ ففي مواضع من القرآن المجيد يتوالى مفهوم بصيغة النسبة إلى العرق (عربي) للدلالة على مستواه المُتمكن في إطاري الفصاحة والعروبة "بلسان عربي مبين"، ق 103/16 و"قرآناً عربياً لعلكم تعقلون"، ق 7/3.

وطيلة فترة صدر الإسلام أخذت صيغة النسبة هذه (**العربية**) تطرد تسمية ومصطلحاً شائعاً في الدلالة على كل نسيج لغوي من مألوف الاستعمال المُوحد؛ في القرآن والأدب الجاهلي، وبها صارت تمتلىء الخطب والوصايا، ومنها ما ورد في الحديث الشريف : "وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي" (اقتضاء الصراط، ابن تيمية، ص169).

وغير ذلك كثير مما سيرد في موضعه من هذا البحث لاحقاً.

وأما مستوى الكلام التواصلي العادي الشائع عند قبيلة معينة من قبائل العرب، فيُظن أن أول تعبير عن مفهومه قد ورد به الحديث، وذلك بصيغة التسمية بالاسم المجرد (**لغة**)، ومنه :

* "أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما كان يقرأ (يا يحيى) بإمالة الياء، قيل له، يا رسول الله، أتُميل، وليس هي لغة قريش ؟ فقال : هي لغة الأخوال من بني سعد" (الإتقان، السيوطي، 91/1).

* ومثله قد جاء في خطاب عمر بن الخطاب إلى ابن مسعـــود "إن القرآن لم يَنْزل بلغة هذيل، فاقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل" (فتح الباري، ابن حجر 9/9).

وقد ظلّ هذا التمييز بين (عربية ولغة) مستعملاً إلى أن زاحمته ثنائية غدت أكثر منه رواجاً بأَخَرة عصر بني أمية فصاعداً، وهي (**الفصحى واللهجة**). و من ثم غدا مصطلح (**لغة**) تتعدد معانيه، ويستعمل، كثيراً مرادفاً لكلمة (**لسان**) أو (**شفة**) في معناهما المجازي على الموروث اللغوي، أو الكلام بصفة عامة، فصيحاً كان أم لهجياً، مع ترجيح انصرافه إلى الفصيح في معظم السياقات . وبات يقال : اللغة العربية، واللغة الفصحى، واللغة العربية الفصحى[7]. وجميعها مفاهيم لاحقة التشكل، لاحقة الذيوع، بعد صدر الإسلام.

لكنه من المناسب للمبحث الذي بأيدينا أن يتواصل فيه النقاش باستعمال المصطلح، الذي يتزامن تاريخياً مع حقبته، وهو : (**العربية**) لا غير.

وكذلك يُشار إلى أن سياسة دار الخلافة كانت جدَّ حازمة تجاه مشروع إحياء (**العربية**) هذه، فكانت تأخذ المسلمين بلون من الإكراه على أنموذجها، حيثما يتصل الأمر بلغة الإدارة، والدواوين، وقراءة القرآن خاصة، وكانت تأخذ شكل الإغراء، والاستكثار من التكلم بها، حتى في الحياة اليومية العادية، عَوْضَ اللهجات المحلية.

بل إن عدمية السيطرة على (**العربية**) قد صارت مسألة اجتماعية تُخلُّ بالمروءة، وقد تزري بصاحبها، لاسيما إذا كان من طبقة الخواص، وذوي الرياسات والجاه. ولربما كان ذلك ضربة لا زب، لكي يكتمل ثالوث الأركان الأساسية المهمة في وحدة وتشكيل مجتمع الأمة الإسلامية، وبالضرورة مجتمع الأمة العربية، بتوافر : إدارة مركزية

واحدة (**الخلافة**)، وديانة مركزية واحدة (**الإسلام**)، ولغة تواصل رسمية مركزية واحدة (**العربية**).

وما هي إلاّ برهة وجيزة من عُمر الزمن حتى ارتقت حركة إحياء (العربية) إلى أوجها، وصارت، أي العربية، أعلى من مجرد كونها لغة محلية عرقية، تخص العرب وحدهم، لتكون لغة ثقافة عالمية، لدى جميع من أظلتهم الحضارة الإسلامية؛ إذ إن رسالة الإسلام رسالة تبليغ عالمية، وغير موقوفة على العرب وحدهم، "وما أرسلناك إلاّ كافة للناس"، ق 28/34. وحيثما امتدت رقعة الإسلام إلى بلد، فقد صارت العربية بعضاً لازماً من مقوماته الثقافية، لا سيما الدينية.

ومن قداسة الشريعة الإسلامية، ومن التمازج العضوي بين (القرآن المجيد) و(العربية)، لغة وديانة، أصابت قداسة الشريعة لغة الشريعة نفسها، فَمَجُدت بمجدها، وشرفت بالأعظم من معاني المديح. وكثيراً ما تُنَوّه الثقافة الإسلامية عن (العربية) بأنها أول اللغات، وكل لغة سواها دونها فهي :

* "كلام جيران الله في دار الخلد يوم القيامة". (ديوان الأدب، الفارابي 72/1).

* وهي "أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا يُعْلَم أنه يُحيط بجميع علمها إنسان غير نبي". (الرسالة،الشافعي ص 49).

* ومنه "لو أَحَسَّتْ العجم بلطف صناعة العرب، في هذه اللغة، وما فيها من الرقّة والدقّة، لاعتذرت من اعترافها بلغتها". (الخصائص، ابن جني 243/1).

* وأيضاً "من هداه الله للإسلام، وشرح صدره بالإيمان، وأتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم؛ والعربية خير اللغات". (لباب الآداب، الثعالبي 17/1).

وتالياً ينعطف النقاش إلى فقرة التفكير اللغوي في الجاهلية، ومن ثم في صدر الإسلام.

2- التفكير اللغوي في الجاهلية :

قد بان من الفقرة الفارطة تواً، أن الأقلّين من عرب الجاهلية حَسْب، قد اكتسبوا مع تطاول الزمن نُمُّواً معرفياً، ومهارة بصناعة القول في لغتهم، فبلغوا شأواً رفيعاً في رعاية فنيّة الأسلوب، وحق البلاغة فيه، صحة وفصاحة. وأما أغلب الناس فعرب عاديّون، وعوام لا يشكل الاحتجاج بعربيتهم العادية إلاّ احتجاجاً بغير خبير.

ويعتب في هذا المقام السؤال، عما إذا عرف فصحاء العرب أولئك نمّواً مماثلاً بنظرية لغتهم، ونظامها البنيوي على قدر مهارتهم فيها !؟

ربما لا يكون من العجلة أن ترد الإجابة مباشرة بالنفي، لكن تحقيق الإجابة العلمية، يستوجب في العادة، فضلاً من النقاشات، وقدراً من الموضحات.

ومن يَتَتَبَّع النتاج اللغوي، الذي سلم لنا عن عرب الجاهلية، فهو يلحظ قوة وانتعاشاً على مستوى الأداء اللغوي نفسه لا حوله، ومستوى تمثيله لا دراسته؛ فعلى ما كان بين فصحاء العرب ولغتهم من تعاطف، وتَفَاعُل، وتَذَوُّق، فلم يَرْشَح أن أحداً منهم قد خلُص إلى وضع أية قواعد، أو أية معايير موضوعية مجردة، تعين من نحو على وزن القول الفصيح، وقياس مدى الكفاية والإتقان بمحتواه، وتُسَهِّل من نحو آخر على ناشئة العرب، عملية تلقي الفصاحة بدلاً من وكُل مسألتها إلى معايشة السماع، وفطرية التعلُّم.

وعلى رغم ما تحفل به (العربية) من مفاصل لغوية كُلية، وقارّة على أنموذج ثابت، يقرع كل أذن سميعة، ولا تخطئه أدنى عين بصيرة، كمفصل التقسيم الإيقاعي في بنية الشعر بخاصة، ومفاصل الإعراب المطرد، وقوالب الصيغ الجاهزة "الميزان الصرفي"، والجذر الأساسي في بنية (العربية) بعامة، فإن ذلك ونظائره لم يبعج كذلك في فصحاء العرب فقهاً لغوياً بأصول عربيتهم، ولا بمظاهر خصائصها، ولو قدراً يسيراً.

وقد لا يَصْعُبُ القول : إن أحوال العرب لم تكن مُهَيَّأة بَعْدُ لتنْجُم فيهم أنظار الاجتهاد والدرس اللغويين، لا في نظرية العربية، ولا حواليها، مما يتصل بالتفكيك، أو الترتيب، أو التبويب إلى وحدات كبرى وصغرى، و إلى ما، وما لا يصح من القيود

والقواعد، في مؤتلف القول أو مختلفه ؛ لأن ذلك شأن لا يرتقيه العقل البشري، إلاّ بعد تراكمات من المعارف المسبوقة، كي تحصل المذكرة أولاً، ثم يجيء الاجتهاد العقلي والتقسيم الفلسفي ثانياً.

ومعلوم أن عرب الجاهلية كانوا على تنظيم قبائلي بسيط، وحياة اجتماعية قوامها القدرية، والتدريب العشوائي، وبلا وجود لإدارة مركزية ضابطة وموجهة، ولا لديانة قوية هادية ومُحفّزة. وما بيدهم من علوم، كان محصوراً في شيء من : الأنساب، والتأريخ، والتنجيم، والشعر. وكلها ماعدا الشعر لم تكن علوماً بالمعنى الدقيق للعلم، بقدر ما كانت ضروباً من المعرفة اللازمة للرجل (الكامل) يَوْمَذاك.

وحتى الشعر فقد كانت تجذبهم فيه كيفية الصورة القولية، ومدى تجسيدها أو عدم تجسيدها لثلاثية العناصر الخاصة بـــ(الفكرة، والعاطفة، والخيال). وجميعها عناصر مُنْضجة لفنيّة القول، ولا تَلجُ في مبنى القول ذاته.

وكذلك كان جَرْيُ الحالِ في حلَق الشعراء التي كانت تنعقد بأذيال أسواق العرب التجارية، حيث يتساجل الشعراء ويتناكفون، بعضهم مع بعضهم الآخر، متقارظين أو متجارحين حول : مَنْ أشعُر العرب؟ وبعبارة أكثر تدقيقاً حول : أيهم نضج فنياً ؟ فاكتملت له العناصر الثلاثة الأنفة، وصح له أن يتقدم على غيره.

وقد يشار في هذا المقام إلى تلك الألقاب الكبيرة، التي كانت تُخلع على الشعراء أو بعض أشعارهم مثل : الفَحْل، والمُحَبِّر، والمُهَلهِل، والبكاءة، لكل من علقمة بن عبدة، وطفيل الغنوي بن ربيعة، والخنساء. ومثل : اليتيمة، والبتارة، والحولية، وسِمط الدهر، لقصائد مختارة لكل من : سويد اليشكري، وحسان بن ثابت، وزهير بن سلمى، وعلقمة بن عبدة.

وعلى سبيل المثال، فإن مطلع القصيدة الموسومة بسِمط الدهر هو :

طحا بكَ قلبٌ في الحِسانَ طَروبُ بُعَيْدَ شَبابٍ عَصْر حانَ مشيبُ.

ولا شك أن تقويم الشعراء بهذا النحو، إنما يمتاح فكراً نقدياً لا لغوياً، ويصدر عن مرجعية ذوقّية انطباعية لا عن أية جوانب معيارية موضوعية.

على أن طليعة من البدايات الفردية للتفكير اللغوي يمكن تَلَمُّسُها معنى لا نصاً حرفياً، في بعض من حِلَق الشعراء السالف ذكرها، وفي مناكفات التجريح الشعري خاصة؛ فثمة تندُّ خطرات نقدية لغوية لا فنية، بنحو ما أمكن تَصيّده في بضعة النماذج أدناه[8].

* فقد عاب النابغة الذبياني على حسان بن ثابت، بعض تصرفه في دوال الصيغ الصرفية، حين ذكر جمعاً للقلة (جفنات، وأسياف)، موضع جمع للكثرة (جفون، وسيوف) بقوله له : "لقد قلّلْت جَفَنَاتك وأسيافك" وبيت حسان هو :

لنا الجفناتُ الغُر يَلْمَعْن في الضُحى وأسْيافَنا يَقْطُرْن مِنْ نَجْدَة دَما

* وعاب طرفة بن العبد على المسيب بن علس، مناقلته الدلالية بين الصيغ المعجية، حين أسقط صفة الناقة وهي (الصيعرية) على الجمل، فقال عنه "استنوق الجمل" وبيت طرفة:

وقَدْ أتناسى الهمّ عند احْتِضاره بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيّة مُكْدَم

* ولعل أوضح نظر لغوي قد استوقف شعراء الجاهلية فيما بينهم، قد كان في (الإقواء)، وربما كان ذلك بسبب مما يؤديه من خرق صريح في إعراب القوافي، بنحوه فيما يُذكر عن النابغة وإقوائه الشعري، لما خالف في قصيدة واحدة من روي الكسر المتسلسل إلى روى الضم، فأرسلوا جارية تغني بشعره وتطيل في الإقواء، فانتبه وأصلح شعره وبيت النابغة هو:

زَعَمَ البوارحُ أن رحْلتنا غداً وبذاك خَبَّرنا الغُرابُ الأسودُ

وقد أصلح النابغة إقواءه فقال : "وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ". وعن أبي عمرو بن العلاء "فحلان من العرب الشعراء كانا يقويان، النابغة، وبشر بن أبي خازم" (ديوان النابغة، ص 29).

بيد أن الخطرات هذه تبقى مقتضبة في طرحها اللغوي، وجزئية جداً في هندسة البناء العام للعربية، وبعضها مطعون في روايته، مثل حكومة ما بين النابغة وحسان بن ثابت؛ فضلاً عن أنها لا تشي بفكر لغوي طبقاً لمفهوم محدد أو قاعدة لغوية معهودة، ولا تعدو كونها مجرد (تنبيهات على أغاليط الرواة).

وكذلك يصعب التسليم بالظّن الجميل، الذي نزع إليه عالم جليل هو (ابن فارس) حين زعم بوجود علمي (الإعراب، والعروض) في العرب، من قبل "فإن قال قائل : قد تواترت الروايات، بأن أبا الأسود أول من وضع العربية (أي قواعدها، أو الإعراب)، وأن الخليل أول من تكلم في العروض، قيل له : نحن لا ننكر ذلك، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً، وأتت عليها الأيام، وقلاّ في أيدي الناس، ثم جَدَّدهما هذان الإمامان". (الصاحبي، ص 9).

وفي الحق، فالعرب قد عرفوا الإعراب والعروض إنشاءً وأداءً، من خلال كلامهم المعرب، وشعرهم الموزون، وصار ذلك لدى فصحائهم فنّاً ومهارة فيهم. وذلك شيء، لاشك، مختلف عن العلم بصناعتي الإعراب والعروض كعلمين لهما شروط العلم، ومقتضياته. وتالياً يمتد النقاش إلى التفكير اللغوي بصدر الإسلام.

3- التفكير اللغوي في صدر الإسلام :

نزول القرآن المجيد بالعربية حدث هام جداً في مسيرتها التاريخية، قد فعل فعلته فيها، بما لم يفعله كتاب آخر بلغة من لغات البشر. وسلفت بطي ما سبق من صفحات إضاءة على الصلة الوثقى، التي آلت إليها علاقة ما بين القرآن والعربية؛ ديانة بلغة. والاعتناء بهذه الفقرة مركوز حول حركية الفعل اللغوي، التي استجدت في العربية جراء ذلك.

فالقرآن بوصفه كلمة الله المباشرة، والحقيقة، أخذت تنجذب إليه مختلف فئات المجتمع الإسلامي الجديد، من الفصحاء حتى العوام، ومن العرب حتى العجم ؛ وكلهم يريدون بالقرآن وصلاً، ولكي يتمكنوا هم بأنفسهم من الاتصال بالله بلا واسطة، من

خلال التلاوة المباشرة له، فتقود آياته إلى الله كلّ من يتمعَّنها هي نفسها، لا معانيها، ولا ترجماتها؛ فترجمة القرآن، كما هو معروف، ليست قرآنا، ولا مشروعية جائزة لمن يتعبد الله بغير القرآن نصّاً.

وباستثناء صنف الناس من العرب الفصحاء، فإن صنفهم من عوام العرب، وكذا العجم مطلقاً، قد كانوا في غاية الطلب، وشدة الافتقار إلى فهم القرآن، ومباحثه.

وكذلك انبعثت حركة مقصودة لذاتها نحو التفقه في العربية، باعتبارها لغة للقرآن، ومفتاحاً لا ثاني له في فهم أحكامه، والوصول إلى معانيه، فضلاً عن امتيازها الاجتماعي كلغة للثقافة الرسمية في مخاطبات الراعي والرعية كليهما؛ فالكفاءة فيها غدت شهادة مهمة، وسبباً قوياً نحو إصلاح المعاش، بالحصول على عمل من الأعمال الرسمية في المجتمع الجديد. ونحو إصلاح المعاد، بإحكام الصلة مع القرآن، ومعرفة السنن والفرائض.

وليس بدعاً أن يستقطب القرآن المجيد انتباه العرب إليه، وأن تتمحور حوله طليعة أنظارهم العقلية المختلفة ؛ فمنذ أقدم العصور التي سجلها التاريخ، يَمّم التمَدّن البشري وجهه شطر النصوص العالية التقدير، وجعلوها بؤرة أفكارهم. ففي القرن الرابع قبل الميلاد، وضع (بانيني) نحواً للغة السنسكريتية في ضوء نصوص (القيدا) الكتاب المقدس عند الهندوس. ومثل ذلك وضع في القرن الثاني قبل الميلاد (تراكس) نحواً لليونانية، في ضوء (ملاحم هوميروس) الشهيرة. وكذلك فعل العبران وكذا السريان، فقد أقاموا دراساتهم اللغوية الأولى في ضوء (الكتاب المقدس).[9]

وبخلاف ما كانت عليه الأحوال قبل الإسلام، فلم تنشط حركة الإحياء اللغوية في هذا المقام بجهود من الهوايات الفردية، وإنما برعاية من أهل الحلّ والعقد بدار السياسة الحاكمة؛ الذين نَصّبوا أشياخاً من الصحابة اتّكلوا عليهم في القرآن لتحفيظه،

وفي العربية لتعليمها، واسْتَعْلَنوا عن أمكنة خاصة بهذا الهدف، وجَسّروا الناس، حتى الصبيان والنساء على الإقبال عليها.

* النبي، صلى الله عليه وسلم، حث على العلم "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". (سنن ابن ماجه 1/81).

* أبو بكر، رضى الله عنه، أوجب في عهده للمرتدين من العرب "عليكم عهد الله وميثاقه، أن تقوموا بالقرآن، وتعلموه أولادكم ونساءكم". (أنساب الأشراف، البلاذري، ص 438).

* عمر رضى الله عنه، بنى بناحية في المسجد رَحْبَة، عرفت بـــ(البطيحاء). لتكون حلقة للتعلم. (موسوعة العقاد، ص 393).

بيد أن واجب النهوض ببسط السيطرة الإدارية المركزية، وبتبليغ دعوة الإسلام، قد جعل الجهد المبذول تجاه موضوع العربية الصرفة، في مرتبة أقل، مقارنة مع خدمات: الإدارة، والديانة؛ فمعظم نفقات بيت المال كانت تنصرف في تلك الفترة المبكرة من عمر الإسلام إلى مشروعات أكثر إلحاحاً مثل : الجند، والعطاء، والقضاء، والحسبة. و لم يعُهْد قبل عصر بني أمية تدخل مباشر من دار الخلافة حول ما يلزم، وما لا يلزم في مجمل حركة التعليم للمعارف المتاحة كلها؛ فكل ذلك كان رهنا باجتهادات أشياخ العلم أنفسهم، وعليهم هم أن يتصرفوا اختياراً أو ردّاً في : وقت التعليم، ومكانه، وموضوعاته، وآليات تنفيذه.[10]

ومن أسى فليس في اليد إلاّ شذرات أخبار، ونُتَفُ تلميحات، عما كان يفعله أشياخ العلم أولئك؛ فهم لم يرثوا عن أسلافهم قبل الإسلام نماذج مسبوقة في صناعة التعليم، و لم تنضج الخبرة بَعْدُ فيهم لدرجة أن تتأصل على منهجية متسقة ومحفوظة، ولا يُعرف أيضاً أن أحداً منهم كان مؤرخاً، أو سعى للتأريخ لعلمه؛ وعليه فحزر المسائل هنا ليس إلاّ حزراً زئبقياً، وعُرضة أن تتعدد فيه الأبعاد والزوايا.

وإذ ما يدع المرء جانباً ذكر من كتبوا الوحي، أو اشتغلوا بمجرد تعليم العربية قراءة وكتابة، فإنما ترشح طبقة معينة تعمقت في قراءة القرآن وعربيته المعجزة. ويرأس هؤلاء : الخلفاء الراشدون، ونفر أمثال : عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ ابن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي موسى الأشعري، وأبي الدرداء.

على أن طبقة الأشياخ هؤلاء، وإن اتفقت لهم الشهادات بالمهارة، وعلو الباع، لم ينهض أحد منهم إلى وضع مذكرة، ولو بسيطة، في قواعد العربية عامة، أو عربية القرآن خاصة؛ وإنما استمرت الحال فيهم على سنن أسلافهم بمحافل الشعر في الجاهلية، يأخذ أحدهم على الغير سقطَهُ، أو يرد عليه غَلَطَهُ، في ضوء المثـــقافة التي قد يصح وسمها، بمثاقفة (التنبيهات على الغلط أو الغريب)، وكفى.

وعموماً فثمة في عربية القرآن مبحثان بارزان، ويجبهان كل من يعرض لتلاوة القرآن، مخافة الوقوع في شركهما، أو سوء تأويلهما ، وهما: **ضبط القرآن، وغريب القرآن.**

والراجح أنهما أهم عبء استثار حفيظة أشياخ العلم، وتمحورت حولهما الاجتهادات وعنهما تنامى الاهتمام إلى مباحث أوسع في القرآن المجيد، وفي العربية أيضاً، حتى ارتقى الأمر بأَخَرة المائة الثانية للهجرة إلى بلورة العلوم، ووضع المصنفات المتخصصة في : الفقه، والنحو، واللغة....الخ.

1:3- ضبط القرآن :

تلاوة القرآن المجيد، من أعظم القربات التي حث عليها الله ورسوله.

* في القرآن "فاقرأوا ما تيسر من القرآن"، ق 20/73، "ورتل القرآن ترتيلا"، ق 4/73.

* في الحديث "اقرأوا القرآن، فأنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" (صحيح مسلم 553/1) .

* وفي الحديث : "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة" (صحيح مسلم 549/1).

وغير خفي أن هناك ضوابط معينة، وكيفية ثابتة لقراءة القرآن المجيد، وقد نقلت إلينا بأعلى درجات الرواية. وهي المشافهة، بالتلقي المباشر عن المقرئ عن شيخه حتى تنتهي السلسة إلى النبي. ومن المؤكد أنه صلى الله عليه وسلم، قد علّم صحابته القرآن كما تلقاه عن أمين الوحي جبريل، عليه السلام، وقد أتقن نفر منهم القراءة حتى صاروا مرجعية فيها، وبعضهم كان ذا خلابة ومهارة في إعطاء القراءة حَقَّها ومُسْتحقَّها، فكان النبي يحث بالتلقي عنهم.

* "خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب". (صحيح البخاري 1385/3).

* وفي الحديث "من سّره أن يقرأ القرآن غضاً، كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" (سنن ابن ماجه 49/1).

* وفي الحديث "قول رسول الله لأبي بن كعب : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال آلله سماني لك ؟ قال : الله سماك لي" (صحيح مسلم 550/1).

* ولقد عُرف عن سعيد بن العاص بن أمية، "بأنه كان أشبه الصحابة لهجة برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أُقيمت عربية القرآن على لسانه". (مختار تفسير القرطبي، ص 539).

لكن ضبط الأداء النطقي بعامة مليء بالجزئيات، والسيطرة التامة على كل الجزئيات لا يكاد أن يَقْوى عليها خواص الناس، بَلْه عوامهم. ومهما بلغت شدة التدقيق في أن يلفظ اللافظ لفظته بما يحاكي اللفظ الأنموذج للقرآن، فإن زلل العثار غير مأمون في الجميع. وكذلك كان من شأن أشياخ الإقراء القرآني، أنهم ساقوا تنبيهاتهم

في هذا الصدد تحت مفهوم (**اللحن**) على معنى الخطأ، وإمالة الكلام عن صوابه، لا على معاني أخر جائزة في كلمة اللحن.[11]

2:3 – اللحن في القرآن :

وقد بلغ من اجتهاد أشياخ الإقراء في موضوع (اللحن)، أنهم رتبوا عليه أحكاماً شرعية، تقوم على مرجعية : التعزير أو التعزيز، والحرام أو الحلال؛ فثمة أجر لمن يجيء بنطق القرآن على صوابه، و ثمة إثم لمن ينعوج به لسانه. وكان ذلك بداية، وأول مظهر من مظاهر التمازج بين التفكير اللغوى والتفكير الفقهي عند العرب.

من حيث إن حفظ (العربية) جعل يوازي حفظ (القرآن)، والغيرة على سلامة (العربية) من (اللحن) صارت على سواء وإيا الغيرة على سلامة (الدين) من البدع. وتدريجياً تسلط التركيز كثيراً على موضوع (اللحن) لا سيما لحن الأعاجم، وضُخِّم خطره، حتى لَعُدَّ عند جمهرة واسعة من علماء العربية التاليين، بأنه سبب، ووراء ولادة أهم علوم العربية التطبيقية وهو علم (النحو).

وتلك نتيجة ليست مطلقة، وجدلية إلى حدّ ما، تبعاً لما يمكن طرحه من مقدمة ههنا. وهل غاية النحو العربي الأولى كانت علاجية، لطرد اللحن، وردّ الخطأ إلى صوابه، أم غذائية لتعليم الصواب، وإكساب القدرة على محاكاته؟ وبالنظر إلى وظيفة النحو العالمية، فيصعب التسليم بأن يكون (اللحن) باعث النحو عند العرب أو عند غيرهم، وإنما باعثه الأساسي في تحقيق المنفعة التربوية، التي يتلاقى عليها جمهور الناس، وهي كشف النظام العام في اللغة، وتعليم ذلك للناشئة من الأبناء أو غيرهم من المحتاجين إليه؛ فأما اللحن فإنما يقع في جوانب ضيقة من اللغة، وأحياناً فردية. واللحن حين يكون كذلك، فلا يُحْسبُ ظاهرة يُتوقف إليها، ولا يستثير الحفيظة، حتى إذا كثرت تفاوضات الألسنة فيه، فعندها يصبح اللحن ظاهرة، ويبتدر التفكير اللغوي في رصده، وتقويم مشروعيته رفضاً له، أو تسامحاً فيه.[12]

وبسبيل إلى معرفة مدققة حول نزعة التفكير اللغوي بصدر الإسلام في موضوع (اللحن)، فيحسن التعريج قليلاً إلى علاقة ما بين العرب واللحن، عرقاً وموضوعاً؛ وعليه يُشار إلى أن اللحن ظاهرة اجتماعية سلوكية، غير مرتبطة بعرق أو لغة، ولا بمثقف أو أميّ، وأساسه في التداخل اللغوي، عندما ينتقل المرء من نسق لغوي، قد ارتاضه، وتمكّن منه،إلى نسق جديد، لم يعتده، وعليه أن يعتاده؛ فههنا تتشكل من عاداته اللغوية الأولى معيارية تُعْسِرعليه العدول إلى سواها، خاصة بعد مرحلة اللدانة اللغوية "الطفولة"، ومن ثم تحدث عملية التهجين، وولادة اللحن. والعرب والعجم في هذا على سواء بسواء.

وكل ما هو من العادات اللغوية المشتركة بين النسقين، فلا يكون محلاً للحن أساساً؛ إذ الاستجابة هنا تكون تلقائية، وضمن المسرب المعتاد؛ وعليه فغير المشترك هو محلة اللحن حسب.

وغير خفي أن نظرية (اللحن) بعامة ذات قيمة إحلالية، مكافئة تكافؤاً سلبياً لنظرية (الاحتجاج)، خطأ مقابل صواب. ونظرية الاحتجاج العربية مُفَصَّلة، كما هو معلوم، وفق مخرجات (العربية)، لا مخرجات (اللهجات)؛ وعليه فالعربية هنا، هي ميدان اللحن فقط. ولا مجال للقول إن العربي يلحن في لهجته،[13] "فهي لغته الأم التي يكتسبها. وتستحكم فيه سليقة، وإذا هفا، أو زلّ لسانه، نبهه المثال الكامن فيه." (اللغة العربية وأبناؤها، نهاد الموسى ص 61).

واللحن طالما يعرض للقرآن المجيد، على رغم ما تناله تلاوته من حقّها ومُستحقها، فهو بسائر (العربية) أشدُّ عرضة، وأكثر فشواً، وقصور الأدلة عن وجود لحن بعربية الأدب الجاهلي مثلاً، ليس نفياً عليها، وإنما ذلك من غَلَق الحيلة إزاءها، ومن غياب تقاليد الثقافة في موضوعها.

والراجح أن اللحن الذي وقع بضبط القرآن المجيد، ومثله أيضاً بعربية صدر الإسلام، لم يكن تبعاً للمنقول والمعقول، من العجم الوافدين، ولا بأوساطهم، بل من

العرب أنفسهم، وفيهم، فأما العجم فهم في تلك الفترة نفر قليلون عدداً، و لم يكونوا قد تخالطوا بالعرب إلاّ تخالطاً سطحياً، والوقت لم يكن بَعْدُ قد هيأ لهم فرصة كافية كي يتعربوا، ويتفاعلوا حضارياً مع العرب، امتداداً منهم في العرب، أو ارتداداً من العرب عليهم، فضلاً عن أن اختلاف الجنس بين العرب والعجم، من شأنه أن يجعل اللحن عند هؤلاء، غيره عند أولئك. وفي كل مستويات اللغة جميعاً[14].

وعلى فرض وجود لحن بعربية العجم، فإنه ما كان ليوقظ حفيظة، ولا ليحمل على غيرة لغوية أو دينية، فالعجمة تغفر لأصحابها لحوناتهم في لغة غير لغتهم الأصلية. ومن البلاء ونقص المروءة، لو غفرت العروبة للعرب لحوناتهم في عربيتهم، أي في العربية الفصيحة، وبالضرورة عربية القرآن المجيد، خاصة لذوي الرياسات والجاه.

وقد ألمعنا بفرش المبحث إلى أن العرب قد راموا منذ الجاهلية، أن يحدّوا من امتداد لهجاتهم اليومية في عربيتهم الأدبية، وسعوا، على الدوام، إلى بقاء عدم التداخل بينهما موجوداً، فمستوى للحياة الاجتماعية العادية اليومية، ومستوى للحياة الاجتماعية الثقافية الجادة. ومع فجر الإسلام تقوّت بالقرآن عربية الأدب على عربية اللهجات، وأزاحتها إلى منطقة الظلّ، وإن لم تَمْحُها. وليس في المقدور محو اللهجات من أية لغة على الأرض أصلاً. ولو أن لهجة ما ترقّت اجتماعياً. وصارت لغة رسمية، فأنها سيَتخَلقُ من رحمها، لا محالة، لهجة أو أكثر للحياة اليومية

وثمة فرض لا يُرى في صوابه شكاً، وهو أن (**الإعراب**) الذي حصته من القرآن والعربية حصة المنطق من العقل، والذي تخففت منه اللهجات، أو هي لم تعرفه ابتداء،[15] يُعَدُّه أبرز خصيصة لغوية غير مشتركة بين المستويين (العربية و اللهجات)، وبالحرى أنه كان، و لم يزل أوضح مَظنة لوقوع اللحن فيه، بل وأبعث مَولدَة للفزع منه على القرآن وسائر العربية. وفي الأثر أن عرب الجاهلية، ما إن استمعوا إلى عربية القرآن المجيد، حتى حار فيها ذوو ألبابهم، وكبار فصحائهم، واعتراهم الانبهار والعجز

عن المعارضة، علم رغم التحدّي الصريح من القرآن لهم : أن يأتوا؛ ولو بسورة من مثله.

* "قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهراً،" ق18/17.

ونحسب أن خاصة (الإعراب) السديد الشامل في جميع القرآن، هي أبرز مناقبه اللغوية الباهرة، التي لم يكن للعرب عهد بها، على هذا النحو، من الاتساع والشمولية. وليس من مجانفة الصواب، أن تكون خاصة (الإعراب) هي الحلاوة التي عناها، الوليد بن المغيرة، بوصفه للقرآن.

* "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر" (إعجاز القرآن، الباقلاني ص29).

وفي المظنون أن ميزة (الإعراب) في العربية قد كانت ميزة عُلوية قلّ عربي من سلم من اللحن فيها، فالكفاية في تحصيلها لا تحلّ بأحد هِبة، ولا بداهة أوسليقة، وإنما تجيء صناعة بالتعلم، وطول الدُربة. وككل صناعة، فثمة فيها ضروب من السداد، وضروب من الخلل أيضاً، وخلل الإعراب هو اللحن فيه. على أنه لا مشاحة بأن صفوة من العرب قد أطاعهم (الإعراب) وتكاملت أوضاعه فيهم، خاصة أمراء الشعر والخطابة قبل الإسلام، وبعده، فهؤلاء قد كانوا أوعية الكلام المعرب، وعواهل الدراية به. ومأثوراتهم المعربة: في الشعر، والخطب، والوصايا، وكتب العهود، لم تهرم، ولم تقبع جامدة في القواميس حتى اليوم، ومازالت مرجعية رفيعة للمحاكاة، وفصل الخطاب. وكثيراً ما يقاس بيانها الكلامي بأسلوب القرآن المجيد؛ تفسيراً لغريبه، أو استشهاداً على بعض مكوناته اللغوية.

وبأية حال فإن ما قد يصدق على مشكل اللحن في القرآن المجيد، ينسحب كذلك على مشكله في سائر العربية، وعليه فسيتواصل النقاش تالياً، دونما عزل للّحن

بأحد هذين المستويين عنه من الآخر. وبأدناه التمثيل، وما إليه من التنبيهات حول الغلط أو الغريب.

3:3- تعزير اللحن:

* في هدي النبوة : "أن رجلاً لحن بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل" (المزهر 396/2).

* ومثله : "أنا من قريش، ونشأت في بني سعد، فأتى لي اللحن" (مراتب النحويين، أبو الطيب ص 23).

* في توجيه أبي بكر : "لأن أقرأ فأُسقط أحبُّ إليّ من أن أقرأ فألْحن" (البيان والتبيين 262/1).

* في توجيه عمر بن الخطاب : "وكتب إليه عامله على ميسان كتاباً، فلحن في حرف منه، فكتب إليه عمر، أن قَنّع كاتبك سوطاً" (البيان والتبيين 217/2).

*وكان عمر، "إذا رأى رجلاً يلجلج في كلامه قال : سبحان الله ! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !! (عيون الأخبار 171/1).

* وينسب إلى عمر قوله : "شر القراءة الهذرمة" (موسوعة العفاد، ص489).

* "وعمر بن الخطاب لما ساوره الشك في قراءة هشام بن حكيم لبعض الآيات من سورة الفرقان فزع، وأخذ بتلابيب الرجل، واختصمه إلى النبي، فأسكته قائلاً : يا عمر "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه" (فتح الباري، ابن حجر 23/9).

ووَددْنا لو أن الرواية جادت بحيثيات مشكل الضبط القرآني الذي أفزع عمر هنا ؟! ومثله لو كنّا نعرف ما اللحن الذي عابه الرسول، صلى الله عليه وسلم، على اللاحن بحضرته !!.

* في توجيه عثمان بن عفان : "خطب الناس قائلاً : أنتم عندي مختلفون في القرآن، وتلحنون فيه، فمن نأى عني من الأمصار أشدّ اختلافاً، وأشدّ لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إماماً". (النشر في القراءات، ابن الجزري 97/1).

* في توجيه علي بن أبي طالب : "كان يضرب الحسن والحسين على اللحن، ولا يضربهما على الخطأ" (الجامع في أخلاق الراوي للبغدادي 24/2).

4:3- تعزيز الإعراب:

على أن الأغلب الأعم في مقاومة اللحن، قد كان في العدول عن التعزير إلى التعزيز من خلال الحث على التعرض للقرآن، وكلام الفصحاء الأبيناء.

* في هدي النبوة : "رحم الله رجلاً أصلح من لسانه"، (الجامع لأخلاق الراوي 24/1).

* وكذلك "من قرأ القرآن فأعربه، كان له بكل حرف أعربه عشرون حسنة" (الاتقان 113/1).

* ومثله "أنّ رجلاً سأل النبي، أي علم القرآن أفضل؟ فقال : عربيته" (مقدمتان في علوم القرآن ص 261).

* في توجيه عمر بن الخطاب : "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة" (عيون الأخبار296/1).

* وعنه "تفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي" (الأمالي للأنباري، ص 24).

* وعنه "تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه" (الشيخان للبلاذري، ص 235).

*وعنه "تعلموا العربية، فإنها من دينكم" (اقتضاء الصراط لابن تيمية ص207).

* في توجيه أبي بكر الصديق : "نظر إلى رجل يبيع ثوباً، فقال له : أتبيع الثوب؟ فأجابه : لا عافاك الله، فقال له : لقد عُلّمتم لو تتعلمون، قل، لا، وعافاك الله" (العقد الفريد، 288/2).

* وينسب إلى أبي بكر وعمر قولهما : "لبعض إعراب القرآن، أعجب إلينا من حفظ بعض حروفه" (إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري16/1).

وسواء في نصوص التعزير أم التعزيز بأعلاه، فالخطاب فيهما هو خطاب عن وسائل واستراتيجيات في عملية التلقي اللغوية للقرآن المجيد والعربية، وصولاً إلى تحقيق الكفاية في موضوعهما، لكن مثل هذا النمط من المعالجة الفكرية أدخل في الفهم التربوي منه في اللغوي، ولذلك فالنقاش يعدوه إلى مباشرة أمثلة اللحن نفسها.

5:3 – أمثلة اللحن :

باليد بضعة أمثلة من اللحن، هي كل ما أمكن لنا الوقوف عليه من حقبة صدر الإسلام، وكلها من المداخلات المنسوبة إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولا غرو، فهو معروف بأولياته المشهورة في: اللغة، والدين، والإدارة. والفصاحة فيه من صفات البنية نفسها، من حيث إنه جهوري الصوت، سليم الشفتين في إخراج الأصوات، "ويستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء". (التحفة البهية، السيوطي ص49).

وتقريباً فالأمثلة مسرودة بأعيانها في المظان اللغوية المختلفة. وبعضها لا يُستبعد فيه طابع الصنعة، لتكون أقرب إلى كونها أمثلة تعليمية منها إلى حوادث حية واقعية، خاصة تلك التي يجيء الحوار فيها شعبياً عادياً، وفكاهياً إلى حد ما، وبلا تدقيق في نسب اللاحن، أو ثقافته. ولكن ذلك لا يسلب الأمثلة غناها في التعبير عن فكرة اللحن فيها. وهو موضوع التمثيل أصلاً.

ومهم أن الأمثلة لا شركة للعجم فيها، مما يُضعف الحجية المتداولة كثيراً، من ربط اللحن في العربية بقيمة العجمة والعجم.

* سمع عمر أعرابياً يقرأ "إن الله بريء من المشركين ورسولِه"، ق 33/9، بجر رسوله متوهماً عطفه على المشركين. فقال : أو برئ الله من رسوله؟ فأنا أبرأ منه فأزعج ذلك عمر بن الخطاب. وأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية".(صبح الأعشى 168/1).

* سمع عمر أعرابياً يقرأ "لَيَسْجُنُنَّهُ عتّى حين"، ق 35/12، بدل (حتى حين)، فخاصمه عمر، مَنْ أقرأك هذا ؟ قال ابن مسعود، فكتب عمر إلى ابن مسعود، إن الله عزّ وجل أنزل القرآن، وجعله عربياً، فأَقْرِئ الناس بلغة قريش، ولا تُقْرِئْهم بلغة هذيل".(المحتسب، ابن جنى343/1).

* تلقى عمر بن الخطاب كتاباً، من كَاتب لأبي موسى الأشعري، جاء فيه "من أبو موسى" بدل (أبي) فكتب عمر إليه قائلاً : سلام عليك، أما بعد، فاضرب كاتبك سوطاً، وأخِّرْ عطاءه سنة"، (مراتب النحويين ص23).

* قدم رجل إلى عمر بن الخطاب، "وقال له: أَيُظحى بظبي؟ فقال عمر : وما عليك لو قلت : أَيُضَحى بظبي؟ قال الرجل : إنها لغة. قال عمر : انقطع العتاب، ولا يضحى بشيء من الوحش". (المزهر 563/1).

* مَرّ عمر بن الخطاب "على صبية يرمون، فأساءوا الرميّ، فَقَرَعهم، فقالوا : إنا قوم متعلمين، بدل (متعلمون) فأعرض عمر مغاضباً وقال : والله لخطئوكم في لحنكم أشدُّ عليّ من خطئكم في رميكم". (إرشاد الأديب 67/1).

* "مَرّ عمر بن الخطاب برجلين يرميان فقال أحدهما للآخر : أَسَبْت، بدل (أصبت)، فقال عمر: سوء اللحن أشد من سوء الرمي" (الشيخان للبلاذري ص200).

وجملة الأمثلة بأعلاه تكشف عن حركة تصحيح لغوية مبتدئة ولا تستظل بمنهجية لغوية بيّـــنة تسعى إلى تحقيق حقائق اللحن، أو إنتاج معرفة علمية عنه. وفي جوهرها تُعد إمتداداً لروح الملحوظات الجزئية التي مارسها شعراء الجاهلية، في مناكفاتهم بعضهم ضد بعضهم الآخر. ومن البين أنها تتوقف إلى أهم مظهرين من

مواضعات اللحن في العربية. وهما : **الأصوات وعلامات الإعراب**، ومثلهما، بحق، مظنة للحن قديماً، ولليوم أيضاً.

لكن من البين كذلك أن ثمة سذاجة، وريح فكاهة في بعض الأمثلة بأعلاه، بنحوه في نتيجة البراءة التي خلص إليها الإعرابي لدى سماعه حركة الكسرة بدل الضمة في كلمة (رسوله)؛ وكأنما معاني الألفاظ معلقة فقط بقرينة العلامة الإعرابية حسب، ولا دور للقرائن الأخرى كالسياق، والموقعية ونحوهما. ومثل ذلك قد يقال في الإبدال الصوتي من الصاد المطبقة إلى نظيرها المرقق وهو السين، فالأصوات المطبقة ميزة أساسية في العربية ولهجات معاً، والإبدال من (أصبت إلى أسبت) يؤدي إلى ولادة مفردة مرفوضة بالعربية إلاّ في رطانة العجم. ومن الصعب تصور الرجلين اللذين مر بهما عمر ابن الخطاب كانا من العجم، فبقي أن طابع الصنعة غير مستبعد في المثالين هنا، وأما بقية الأمثلة فبطيات مضمونها صحة منطوقها. واللحن في مقامها مسموع في العرب لليوم، مثل الإبدال الصوتي بين الحاء والعين، والضاد والظاء في (حتى : عتى، يضحى : يظحى) ومثل الإنابة في علامة الإعراب، في الأسماء الخمسة، وجمع المذكر السالم، باستعمال علامة واحدة، بدل ثلاث العلامات في (أبو) عوض (أبي وأبا)، وثنائيتهما في (متعلمين) عوض (متعلمون). ولا نكران أن اللحن ههنا بأثر من الازدواج اللغوي بين العربية ولهجاتها، ولو أن المقام مقام لهجات، لكانت الأمثلة من هذا القبيل ذات مشروعية، و لم توصف باللحن.

6:3- غريب القرآن :

غريب القرآن هو الوجه الآخر الذي تعلّقه التفكير اللغوي بصدر الإسلام، بعد وجه (ضبط القرآن)، وبرز الاهتمام به من حقيقة وجود مفردات بالقرآن المجيد، لم تدر بمسامع العرب من قبل، أو أنها اعتاص عليهم أمرها، فأدى ذلك إلى طلبها في ذخائرهم، من الأدب الجاهلي والشعر خاصة؛ وبذلك انفتح جسر بين لغة القرآن ولغة

الشعر، ومن ثم انفتح مُشكل اقتضته لغة الشعر نفسها، فكانت حاجة لفهم معنى القرآن، وحاجة لفهم معنى الشعر، بيد أن الاجتهاد هنا كان كذلك سطحياً جداً، و لم يجاوز حدّ المقابلة بين المفردات ؛ بإثبات اللفظ الغريب من القرآن بالشعر، مما أدى لا حقاً إلى قيام جدلية حول صحة الاحتجاج على القرآن بالشعر أم العكس.

* في الحديث " إذا تعاجم شيء من القرآن، فانظروه في الشعر فإن الشعر عربي" (الإتقان 119/1).

* وفي الحديث "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه في الشعر" (الإتقان 113/1).

* وعن عمر بن الخطاب أنه كان لا يفهم معنى "أو يأخذهم على تخّوف"، ق 47/16 حتى وقف به فتى فقال : إن أبي يتخوّفني حقي "فقال عمر "الله أكبر" أو يأخذهم على تخوّف، أي على تنقص لهم. وفي رواية أن شيخاً قال هذه لغتنا : التخوّف التنقص، فقال عمر، هل تعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال : نعم، قال : شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقته :-

تخوّف الرحل منها تامكاً قرداً كما تخّوف عود النبعة السفن

(البرهان، الزركشي295/1).

* وروي عن عمر أنه التبس عليه معنى (الحرج) فقال : ما الحرجة فيكم ؟ ابغوا إلي أعرابياً واجعلوه من بني كنانة مدلجياً، فأُتي براع من بني مدلج فقال: ما الحرجة فيكم؟. قال: الشجرة لا تصل إليها راعية ولا وحشية، فقال عمر: فكذلك قلب الكافر، لا تصل إليه المعرفة ولا الرغبة في الإسلام". (مقدمتان في علوم القرآن ص187).

* وقد كان ابن عباس، رضي الله عنهما، أبرع من مَرَس في تفسير غريب القرآن بالشعر. ومسائل نافع ابن الأزرق له عن مواضع من القرآن، واستشهاده في كل جواب ببيت من الشعر مشهورة جداً.[16].

ومن حيث إن مبحث (المعنى) بعامة حمّال أوجه، والضوابط فيه ليست شكلية بنحو ما هي في مبحث (الإعراب)، فقد كان ثمةَ تهيُّب من التعرض لغريب القرآن.

وروح التعزير القوية التي كانت تُحيق بغالط الإعراب،جعلت تقابلها ههنا،أي في مقام الغريب، روح شديدة الإحتراز، تفضل السكوت على إبداء الرأي،حتى من لدن علماء الفقه، كأبي بكر وعمر.

* "سُئل أبو بكر عن "وفاكهة وأبا"، ق 31/80 فقال : أي سماء تُظلني وأي أرض تُقلّني، إذا أنا قلت في كلام الله ما لا أعلم"! (التحبير، السيوطي ص 199).

* "وقرأ عمر بن الخطاب سورة عبس فلما بلغ "وفاكهة وأبا"، ق7/80" قال : الفاكهة قد عرفناها، فما الأب ؟ ثم قال : لعمرك يا ابن الخطاب، إن هذا لهو التكلّف. وروي عنه أنه قال : ما أمرنا بهذا، كل من عند ربنا". (البرهان 372/1).

صفوة البحث :

وبآية ما سلف كله، يظهر أن مرحلة التفكير اللغوي، التي تحمل الثراء في التصورات والمفاهيم لم تبدأ في العرب إلى نهاية صدر الإسلام بَعْدُ. وليس ثمة أزيد من خطرات انطباعية مقتضبة، ومرسلة هنا أو هناك في مجلس من المجالس، ولا ترقى إلى حدّ كونها مقدمة أو رسالة في بابها. وفي مجملها كانت مجرد حركة تصحيح مبتدئة، وذات لون ثقافي واحد، يصح فيه أنه (ثقافة التنبيه على الغلط أو الغريب) حسب. على أنها ذات قيمة وأهمية، فهي التي خطت، بشكل جنيني، أصول النظام في مجمل حركة الاحتراف اللغوي لا حقاً، وصيرته ذا حرمة قارة، يصعب جداً مجاوزتها؛ وذلك أنها ربطت الثقافة العربية الرسمية، بالمكونات البنيوية للقرآن والأدب القديم ليس إلا هما.

وعند هذا الحّد، يصل المبحث إلى مداه وعساها تتهيأ فرصة ثانية، فَتَسْتَكْمَلُ حلقة أخرى من حلقات التفكير اللغوي العربي إلى ما قبل مرحلة التقعيد وظهور المصنفات اللغوية (**والله الموفق**).

إحالات البحث

(1) انظر في نسب العرب؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى 1/ 50، المسعودي : مروج الذهب 43/1، الأقطش: حول حقيقة العربية الفصحى، مقالة بمجلة نزوي، عُمان، ع، 2 /2003م.

(2) انظر في موضوع الاحتجاج اللغوي ؛ الجاحظ : البيان والتبيين، 184/1، السيوطي: الاقتراح ص26.

(3) انظر في التباين بلهجات العرب؛ أحمد الجندي: اللهجات العربية في التراث 711/2 عبد الرحمن أيوب : العربية ولهجاتها ص43، رابين : اللهجات العربية ص169.

(4) انظر في بداية العربية؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربي 123/2، شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص131، الأقطش : المرجع السابق نفسه.

(5) انظر في وحدة عربية الأدب الجاهلي ؛ طه حسين : في الأدب الجاهلي ص94، الأقطش : المرجع السابق نفسه.

(6) انظر في موضوع الكتابة عند العرب؛ ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص 61.

(7) انظر في مصطلح الفصحى؛ رابين : اللهجات العربية الغربية، ص47، الأقطش : المرجع السابق نفسه.

(8) انظر في ألقاب الشعراء. ومناكفاتهم اللغوية ؛ عبدالعزيز عتيق : تاريخ النقد الأدبي ص21، طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص19.

(9) انظر في علاقة الدين بالفكر اللغوي؛ ميلكاإفيتش : اتجاهات البحث اللساني، ص27 محمود جاد الرب : علم اللغة ص26، أحمد مختار عمر : البحث اللغوي عند العرب ص80، تمام حسان : الأصول ص103.

(10) انظر في سياسة التعليم عند الراشدين؛ الجاحظ : العثمانية ص88، ابن الأثير : أُسْد الغابة 106/3، السيوطي: التحفة البهية ص49.

(11) انظر في تأصيل مفهوم اللحن؛ عبد العزيز مطر : لحن العامة ص23.

(12) انظر في صلة النحو باللحن؛ السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص18، الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص15، محمد الطنطاوي: نشأة النحو ص 6، سعيد الأفغاني : من تاريخ النحو ص8، طلال علامة : تطور النحو العربي ص29، وانظر بإزاء ذلك؛ اللحن والعجمة عند؛ عمر عكاشة : نظم العربية للناطقين بغيرها ص42.

(13) انظر في اللحن واللغة الأم؛ نهاد الموسى : اللغة العربية وأبناؤها ص61، عمر عكاشة : نظم العربية لناطقين بغيرها ص42.

(14) انظر في اللحن والعجمة؛ عمر عكاشة: المرجع السابق نفسه،الأقطش : اللحن في الأصوات العربية على ألسنة العجم بالبصرة، م. أبحاث اليرموك 1998/1، ص 48.

(15) انظر في صلة ما بين العربية والإعراب؛ يوهان فك : العربية ص3، عبد المجيد عابدين : المدخل إلى دراسة النحو العربي ص 33، إبراهيم السامرائي : فقه اللغة المقارن ص117، إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص 143، رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة ص327.

(16) انظر في مسائل نافع ابن الأزرق؛ السيوطي: الإتقان 120/1.

جريدة المراجع

(1) ابن الأثير، الجزري : أسْـــد الغابة في معرفة الصحابة، المكتبة الإسلامية، د. ت.

(2) ابن سعد : الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1960م.

(3) الأسد، ناصر الدين : مصادر الشعر الجاهلي، دار الجيل، بيروت.

(4) الأفغاني، سعد : من تاريخ النحو، دار الفكر، بيروت،1963م.

(5) الأقطش، عبدالحميد : اللحن في الأصوات العربية على ألسنة العجم القدامى، مجلة أبحاث اليرموك 1988/1م، وحول حقيقة العربية الفصحى، مجلة نزوي، عمان، 2002 م.

(6) أيوب، عبدالرحمن : العربية ولهجاتها، معهد البحوث العربية، القاهرة 1968م

(7) الباقلاني، أبو بكر : إعجاز القرآن، تح، محمد خفاجي، دار الجيل،بيروت.

(8) بروكلمان، كارل : تاريخ الأدب العربي، تح، عبدالحليم النجار، دار المعارف، مصر.

(9) الجاحظ، أبو عمرو : البيان والتبيين، تح، عبدالسلام هارون، الخانجي، القاهرة، 1968 م.

(10) الجندي، أحمد : اللهجات العربية في التراث، الدار العربية، تونس،1978م

(11) حسان،تمام : الأصول، الهيئة المصرية، القاهرة، 1982 م.

(12) حسين، طه : في الأدب الجاهلي، دار المعرف، مصر، 1968 م.

(13) رابين، حايم : اللهجات العربية القديمة، تر. عبدالرحمن أيوب، الجامعة، الكويت، 1986 م.

(14) الزبيدي، أبو بكر : طبقات النحويين واللغويين، تح، محمد أبو الفضل، دار المعرف، مصر.

(15) السامرائي، إبراهيم : فقه اللغة المقارن، دار العلم، بيروت، 1968م

(16) السيوطي، جلال : الاقتراح، تح، أحمد محمد قاسم، السعادة، القاهرة، 1976م، والتحفة البهية والطرفة الشهية، دار العلم، بيروت، لبنان.

(17) السيرافي، أبو سعيد : أخبار النحويين البصريين، تح، خفاجي والزيني، القاهرة، 1955م.

(18) ضيف، شوقي : العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر.

(19) الطنطاوي، محمد : نشأة النحو، دار المعارف، مصر، 1973م.

(20) عابدين، عبد المجيد: المدخل إلى دراسة النحو العربي، الشبكتي بالأزهر، 1950م.

(21) عبد التواب، رمضان : فصول في فقه العربية، دار المسلم، القاهرة، 1979م.

(22) عتيق، عبدالعزيز : تاريخ النقد الأدبي، دار النهضة، بيروت،1974م.

(23) عكاشة، عمر: نظم العربية للناطقين بغيرها، أطروحة دكتوراه، الأردنية، 2001م.

(24) فك، يوهان : العربية، تر، النجار، القاهرة، 1951م.

(25) مطر، عبدالعزيز : لحن العامة، دار المعارف، القاهرة، 1981م.

(26) موسى، نهاد : اللغة العربية وأبناؤها، عمان، الأردن، 1990م.

(27) ميلكا، افيتش : اتجاهات البحث اللساني، تر، سعد مصلوح، وفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

* توثيق النصوص النقلية، قد ذكر بطيها، في ثنايا البحث، وهي عديدة.